من مجالس الأدب

أديب يتعاظم...!

الأستاذ محمد رجب البيومى

إلى الأستاذ محمد كرد على

قرأت المقال الذى نشره الأستاذ الحوفانى بأحد أعداد الرسالة تحت عنوان « هؤلاء كلاب » فرأيت أن أعرض عليك ما سبق أن قاله أحد أدباء القرن السادس الهجرى فى زملائه لتكون على بينة من أخباره ، ولن أفترى على الرجل فأنطقه بما لم يقل ، ولكنى تقيدت بما روى المؤرخون عنه ، وها أنذا أضع بين يديك المراجع التاريخية ، فأنت رجل مراجع وفارس وتقبل فائق احترامى

م . ر البيومى

(يا قوت الحموى يتوجه إلى مسجد الخضر فى آمد ، ويقابل شيخ أدبائها على بن الحسن بن عبستر بن ثابت الشهير بشميم الحلبى ويدور بينهما الحديث التالى)

ياقوت : السلام عليك ياسيدى الجليل

شميم : عليك السلام ورحمة الله ، من أنت ؟

ياقوت : أنا ياقوت الحموى جئت إلى آمد اليوم ، فوجدت حديثك على كل لسان ، وسمعت المدح ينثر عليك بدون حساب ، فرأيت أن أحظى بمقابلتك ، وأنهل من معينك الفياض

شميم : كأنك لم تسمع بى إلا حين جئت إلينا اليوم ، مع أن مؤلفاتى المديدة قد تناقلها الناس فى الآفاق ، وذاع حديثها فى أنحاء حلب وبغداد وخراسان .. !

ياقوت : لا يامولاى فقد سمعت الكثير عن أدبك وإنتاجك ، ولكنى حين زرت آمد ، ولمست إعجاب الناس بك ، تذكرت ما أعرفه عنك ، وهرعت إلى لقائك ، راغباً فى الاستفادة والتوجيه !

شميم : إننى كما تعرف ، متنوع الثقافة ، متشعب المعارف ، فى أى فن تريد أن يجرى الحديث ؟

العرب يتنهبون للأمر فيطلبون حقهم فى الإصلاح وحقهم فى الاستقلال الذاتى فكثر فى وجه الاتحاديين وأقبل على العرب يحضهم على طلب الحرية وبذل الثمن لهذه الحرية التى لا تذوق أمة طعم السعادة بدونها ولا يصل إليها شعب إلا بدماء اللهج ، فنظم قصيدة سماها (فى معرض السيف) يؤيد بها الحركة الإصلاحية فى بيروت ويدعو جميع العرب إلى الانضمام إليها

حتى المنى كثغور الغيد تبتسم ... إذا تطرسها الصمصامة الخذم

دع الأمانى أو رمهن من ظبة ... وإنما هن من غير الظبا حلم

والمجد لا يبتنى إلا على أسس ... من الحديد وإلا فهو منهدم

والحق لا يجتنى إلا بذى شطب ... ماء المنية فى غربيه منسجم

فللحسام صليل يرتمى شرراً ... مفتقاً أذن من فى أذنه صمم

وإنما العيش للأقوى فمن ضعفت

أركانه فهو فى التاوين محترم

والمجد يأثل حيث البأس يدعمه

حتى إذا زال زال المجد والكرم

ومن حسنات الرسافى الإحاطة بجميع النواحى المهمة من حياة الأمة العربية ولا سيما نواحى الوحدة التى تستمد منها قوتها فى نضالها فوجه إلى إخواننا المسيحيين قصيدة عصماء سماها — فى سبيل الوطن — أعلن فيها أن عناصر الوحدة بين العرب هى اللغة والوطن والإيمان بالله

إذا جمعتنا وحدة وطنية ... فماذا علينا أن تعدد أديان

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة ... لسان وأوطان وبالله إيمان

فأى اعتقاد مانع من أخوة ... بها قال إنجيل كما قال قرآن

ولنسمع الآن هذه الصيحة القوية المدوية يرسلها الرسافى من أعماق نفسه فتردد نفوس العرب الذين ربط الاتحاد القومى بين قلوبهم

فمن مبلغ الأعداء أن بلادنا ... مآسد لم يطرق ذراهن سرحان

وإنا إذا ما الشر أبدى نيوبه ... رددناه عنا بالظبا وهو خزيان

سنستصرخ الآساد من كل مربض ... فنمشى إلى الهيجاء شيباً وشبان

أسود وغى تأبى الحياة ذميمة ... وتلبس بالعز الردى وهو أكفان

ومقاحيم تصلى الصمصان مشيمة ... إذا احتدمت فى حومة الحرب نيران

وتكسو العراء الرحب مسح مجاجة ... يمج بها السيف الردى وهو عربان

سنهض للمجد المخلد نهضة ... تقربها حوران عيناً ولبنان

وننتزع من أرض الشآم دمشقها ... وننتزع من أرض العراقين بغدان

ونطرب فى البيت المقدس صخرة ... وترتاح فى البيت المحرم أوكان

ونحسن للعرب الكرام عواقب ... فيحمدها مفت ويشكر مطران

عمرى الحسينى

ياقوت : لقد شغفت بالأدب ورواية الشعر والتاريخ وإني لأرجو أن أنفع لديك القليل

شميم : أنظر أمامك ، فهذا ديوان ضخم ملئ بالكتب الأدبية التي ألفتها من دا كرتي دون أن أستعين بمؤلفات أحد ، فهل شاهدت في رحلاتك السهلة من له هذا القدر من التأليف ؟

— هذا مجهود كبير يامولاي ، ولكنه غير مستغرب من أديب كبير عكف على الأدب والشعر حقبة من الزمن ، وإملك تخبرني عن طريقتك في التأليف ، وكيف تختار المواضيع التي تدبج فيها القول ، حتى اتفق لك هذا التراث الثمين

— أنا لا أطرق الأبحاث الهينة المربحة ، التي يعمد إليها جمهرة المؤلفين ، ولكني أعمد إلى الممجز المعمى من آثار السابقين فأعارضه بما أراه ، فتكون معارضتي ماحقة ساحقة ، وأنت تعلم ماذاع عني من القدرة والإبداع ! !

— لقد قرأت بعض معارضاتك ، ولكن اختلاف الأيام قد أفسد الذاكرة وشتت الانتباه ، فهل لي أن أعرف منك من عارضتهم من البلغاء لأسجل ذلك فيما بين يدي من أوراق

— لقد رأيت الناس يعجبون بأبي تمام وهو حقير قدم ، إذا قيس بي ، سمعت بعض الثناء على حماسته التي جمعها من أشعار الناس ، فأردت أن أخله بحماسة جمعتها من شعري الخاص ، ولم أستجد الشعراء الآخرين كما فعل ابن أوس الذليـــل ، فجاءت حماستي ضرباً من السحر الحلال

— هل لك أن تسمعني بعض خرائدها الجياد ؟

— حماستي مشهورة معروفة فعل عنها الناس ، وأظنك ستتجاوز حدود الأدب في السؤال !

— معاذ الله أن أتجاوز الحد معك أيها السيد الجليل ، ولكني ظمئ إلى المعرفة والعلم ، وقد قدمت بلدتك من أجلك وحدك ، فكيف أخرج منها خالي الوفاض؟

— أعرف تماماً أنك جئت إلى آمد لتزورني ، فليس بها من تشد إليه الرحال سواي ، وإن أسد في وجهك الطريق فسلني عما تشاء

— سأترك الكلام في أبي تمام كيلا تغضب علي ، وأحب أن أسألك عمن عارضتهم من الشعراء سواه

— لقد عارضت الكثيرين غير حبيب، فأبو نواس قد نظم في الصهباء قصائد عامرة سارت مسير الشمس ، وظن الناس أنه لم يدع شيئاً لغيره ، فتصديت له معارضاً ، وأسقطت معجزته من يده ، ونظمت في الخمر عقوداً بديعة ، تحلى بها الرماق ، فلو عاش ابن هانيء لاستحيا أن ينظم شعراً بعد الآن

— أخاف أن تتهمني بفساد الذوق ، إذا طلبت بعض خرباتك أيها الطائر الصداح

— لن أقول لك شيئاً بعد ، فأنا أعظم من أن أنشد الناس ، ولكن خذ هذه الصحيفة واقرأ ما بها من الخمريات

ياقوت يتناول الصحيفة ويقرأ

أمزج بعسبوك اللجين ذهباً حكته دموع عيني
كانت ولم يقدر لشيء قبلها إيجاب كوني
وأحالها التحريم لما شبهت بدم الحسين

يقاطعه شميم فيقول :

— مارأيك في هذا القريض ؟

— أحسنت يامولاي غاية الإحسان!

— (في انفعال) ما عندك غير الاستحسان ! ! تبا لهذا الزمن الجاحد أنا نخلي إذ أسمع البهائم أشعاري الجياد

— معذرة أيها السيد، فقد اعتدت أن أقول لمن ينشئ الشعر الجيد ، أحسنت ، وهأنذا قد قلت ، فماذا أصنع لأعبر عن إعجابي بشعر مولاي

— نعم تقوم وتصنع مثل ما أصنع ، ثم يقوم من مكانه ويدور في المسجد ويصفق في تيه وإعجاب »

— لقد تعلمت منك ما يجب أن يصنعه المستحسن ! ! ولكن الضحك يأخذ على سبيل الكلام ، فهل أضحك يامولاي

— لم تضحك أيها الأحمق في مجلس الوقور ؟

— كنت سمعت عنك نادرة ظننتها مختلقة عليك ، وهأنذا أصدقها الآن

— ماهي النادرة ياجحون ! !

— حدثني أبو البركات سعيد الهاشمي أنك جئت قديماً إلى حلب ، فقدم عليك في ملأ من صحبه ، فأنشدتهم بعض قصائدك فاستحسنوها غاية الاستحسان ، فمضيت كثيراً ، وقمت إلى أحد أركان المنزل ، ونمت على ظهرك ثم رفعت رجليك إلى الحائط ولم تزل ترتفع شيئاً فشيئاً حتى وقفت على رأسك ، وقلت هكذا نشكر النعمة ، بأن يقف الإنسان على رأسه لا على قدميه ،

وأمرت الحاضرين بأن يصنعوا ما صنعت ! !

— نعم فعلت ذلك لأفهمهم طريقة الاستحسان .. ثم ماهى المناسبة التى حملت أبا البركات الحقير يحدثك بهذه النادرة ، وقد طمسها الزمان

— لقد كنا نحلب ، ومرت بعض الجنائز ، وبها نسوة يلطمن الوجوه ، وينحن بكلمات حزينة ، ويأتين بحركات عجيبة ، فقال القوم : إن هذه الحركات منقولة عن مولاى ، وإن نواح النائحات قد أخذه سيدى شميم ! ! وخاض الناس فى غرائبك البديعة فذكر أبو البركات نادرته عنك ، وهى تحفة بديعة ستدور بها الأسمار !

— هذا الكلب صادق فيما قال ، وقد نسى أن يسمعك النواح العجيب الذى صنعته واخترت له رويا محكماً ووزناً مرناً ، وإذا رجعت إلى حلب مرة ثانية فسل عنه الأدباء

— أعجب كيف شغلت نفسك بالنادبات النائحات وأنت غارق فى أبحاثك دون أن تجد الوقت لهؤلاء !

— لقد كنت مع تلاميذى ذات صباح بحلب ، فمرت بنا جنازة يندب فيها النساء فى غير حرارة وحسرة ، كما يجب أن يكون ، فأخذتنى الحمية ، وأمرت من معى من التلاميذ ، فوقفوا صفين حولى ، ولطمت خدى ، فلطموا خدودهم مثلى ، ووضعت نواحاً يرتلونه فأذن الله وتناقلته النادبات فى جميع البلاد !

— أنت يامولاى مبدع فى كل أمورك ، وأخشى أن يبتعد بنا الحديث عن الأدب والشعر ، فهل تكمل حديثك مع أبى نواس ؟

— إن فضلى على هذا الكلب واضح بين ، فإنى لم أذق الخمر طيلة حياتى ، ووصفتها بما أعجز المدمنين العشاق ، أما اللعين أبو نواس فقد عب من الخمر دناناً مترعات ، وكان شعره هراء بدداً إذا قيس بشعرى الممتاز

— إذا كنت لا تشرب الخمر ، وأجدت فيها القول ، فكيف بك لو تكلمت فى الزهد والحكمة كأبى العلاء ، مع أنك اصطليت بما للزهد والحكمة من ضرام .

— من ذلك الكلب الأعمى الذى تذكره فى مجلسى الآن ، إن المعرى لايوزن بنملى ، فكيف تطمع أن أعارضه بشعرى الخلاب ! باقوت مندهشاً :

المعرى كلب حقير ! سبحان الله يامولاى ! لقد ذكرتنى بأبى زلزال ، ملك النحاة

— هذه جريمة ثانية ، إذ كيف أذكر برجل كل صناعته النحو ، أما أنا فكاتب شاعر راوية إخبارى محدث لغوى مؤرخ ! هل غرب عنك عقلك ياجهبون ؟

— ذكرتنى به لشىء واحد يامولاى ، فقد كان لايذكر أمامه نحوى مثله إلا قال عنه ما قلت فى أبى العلاء ، وقد خاض ذات يوم فى ذكر زملائه النحاة فجعلهم جميعاً كلاباً ، فقال له بعض الحاضرين : إذن أنت ملك الكلاب لا النحاة ، فكاد عما ألقم بحجر فاه !

— ملك النحاة معذور فى سبه الناس ، فقد ابتلى بمخالطة الأوشاب والرعاع فوصفهم بما يستحقون .. دعنا منه ، وتكلم فيما جئت من أجله دون انتظار

— لم أجئ إلا لأسألك عن مؤلفاتك ، وقد ذكرت لى معارضتك لأبى تمام وأبى نواس ، فمن غيرهما من الذين نكبوا بمعارضتك على غير ميعاد

— لقد رأيت استحسان الناس لجناس البستى ، فألفت كتاباً فى التجنيس ، أسميته «أنيس الجليس» وخذ هذه الصحيفة واقرأ ما يقع عليه بصرك دون اختيار

(يتناول ياقوت الصحيفة ويقرأ)

ليت من طول بالشـــام ثواه وثوى به !
جمـــل العودة للزو راه من بعض ثوابه

يقاطعه شميم ويصيح : اسجد الآن ، اسجد الآن !

— لماذا أسجد يامولاى ؟

— هذا موضع من مواضع السجدات فى الشعر ، وأنا أعرف الناس بتلك المواضع فلا تخالف أمر مولاك

يسجد ياقوت ثم يلقى الصحيفة ويسأل :

— ومن غير أبى تمام وأبى نواس وأبى الفتح البستى قد نكب بمعارضتك أيها السيد الجليل ؟

— هل سمعت الخطباء يرددون على المنابر خطب ابن نباتة فى دمشق وحلب وبغداد ؟

— نعم يامولاى

— لقد عارضت هذا المتشدق بخطب قوية مدهشة ، فليس

للناس حديث غيرها الآن

— معذرة يا مولاى لم أحط بسماعها ولعل لديك سمراً يحسنها وأسعد بقراءته روحاً من الزمان

بعد تسليم يده ويعطيه ديوان الخطاب ، فيقرأ ما وقعت عليه عينه ويسمع صاحبه قوله:

الحمد لله فالق حب الحصيد بحسام سح السحب ، صانع حد الأرض بقاني رشيق المشب ، محيي ميت الأرض بإبانة كالح الجدب ، لابتسام ثغر نسيم أنفاح الخصب ، أحمده على ما منح من موضح بيان عما ألف في سوداء لب »

ويلاحظ تسليم تلكؤ ياقوت في القراءة فيصيح منفعلا

— ما للبهائم والأدب ؟ دع السفر أيها الأعجم البليد ، هل مررت على الموصل فأخذت منها البلادة والغباء ؟

— معذرة يا مولاى، فقد ثقلت التراكيب ، ولم يجد اللسان نافذة للاسترواح فتعثر به المنطق ... وضل الإجادة في الإلقاء

— قلت لك هل مررت على الموصل فأخذت منها الفهاهة والبلادة ؟ فلم أظفر بجواب !

— أنا مضطر لمخالفتك الرأى في أهل الموصل فهم كما أعتقد، ألبة أذكياء

— وما معرفتك بالذكاء واللب ؟ لقد ناقشتهم وخبرتهم ، فعجبت كيف خلقهم الله، ووالله لو قدرت على خلق مثلهم ما خلقتهم على الإطلاق

— للمرة الثانية تذكرنى بأبى نزار ملك النحاة !

— ولأى شيء ذكرتك به الآن ؟

— أنت تسب أهل الموصل، وهو يسب أهل الشام ، وكلاكما لا يعترف بإنسان ، لجميع الناس كلاب وعاع ...

— لى العذر إن شتمت جميع الناس ، فهم لا يفرقون بين الدر والبعر ، وملك النحاة معذور أيضاً ، وإن كان يخاف الناس فلا يجاهر بسبهم كما أفعل الآن

— هو يجاهر مثلك يامولاى ، وقصته مع نور الدين زنكى قد عرفها كل إنسان يقطن بلاد الشام !

— لم أشتغل ذهنى قبل الآن بأبى نزار فأعرف قصته مع نور الدين ، ومع ذلك فاسردها على بإيجاز

— لقد خلع نور الدين عليه حلة سنية ، ومر فى طريقه فرأى حلقة بها تيس يدربه إنسان ، فقال المدرب لتيسه ، إن بحلقتى رجلا عظيم الشأن نابه الذكر ، فأين مكانه ،فشق الحيوان الحلقة ووضع يده على ملك النحاة ، فلم يتمالك نفسه وخلع عليه حلة نور الدين ، وعلم الملك فعاتبه ، فقال ملك النحاة ، إن بهذه المدينة أكثر من مائة ألف ليس فيهم من يعرف قدرى غير هذا الحيوان فخلعت الحلة عليه فى ارتياح

— أصاب ملك النحاة وأهل الموصل كأهل الشام فى الدناءة والحطة ، وقد كنت أشرح لهم القاعدة العلمية ، وأقرأ النص الأدبى موضحاً مجملا فما يستفيدون شيئاً منى ، فمن ذا يلومنا على احتقار الدهماء !

— كلامك رفيع يامولاى، فالموصليون معذورون إذا لم يفهموه

— اسمع يابنى ليس فى الوجود إلا خالقان ، فواحد فى الأرض وواحد فى السماء ، فالله فى السماء ، وأنا فى الأرض كما ترانى الآن

ياقوت ينظر إليه مندهشاً

تسليم : هذا كلام لا تفهمه أنت ولا العامة ، ولكنك لا تنكر مقدرتى على خلق الكلام

— اعفنى من هذا الحديث يامولاى، فلست من علماء التوحيد فأعلم من الذى يخلق الكلام ؟

— إذا لم تسر المناقشة كما أريد فلن أتحدث معك فى علوم الأدب على الإطلاق !

— لن نتحدث فى الأدب كما تريد يا مولاى ، وسأسألك سؤالا يتعلق بك ، فأنا رجل محدث ، وإن لم تكن بالمحدث جرأة مات بغصته ، فهل تأذن بالجواب؟

— اذكر السؤال أولا ولى الحق فى قبوله أو رفضه كما أشاء

— لم سماك الناس « تسليما » مع أن اسمك الحقيق على يامولاى؟

— لقد مكثت مدة من عمرى لا آكل غير الطيب ، لأخفف الرطوبة ، وأقوى الذاكرة ، وكان الغائط يمتنع عنى بضعة أيام ، فإذا جاءنى كان أشبه ببندقة من الطين ، فكنت آخذه وأقول لمن يجلس معى « تسه ، تسه » فإن له رائحة طيبة ، فكثر ذلك حتى غلب على ولقبنى الناس بتسليم

— حسبك يا مولاى ، فأنا أريد أن أسجل جميع ما سمعته منك ، ولو طال بنا الحديث لعجزت عن حصره ، وستكون تسميتك هذه ملك الختام

— لقد أمتعتك بحديثى ، وهو لا يباح لكثير من الناس ، فاشكر ربك على فضله ، فالأمر كما قال أبو العلاء

ولكم عين تؤمل أن ترانى وتفقد عند رؤيتى السوادا

« المنصورة »

محمد رجب البيومى